الترجمة بين النقل والتأويل

يوسف سلامة *

لو شاء المرء أن يكتب تاريخاً للترجمة لما كان تحقيق مثل هذا الأمر شيئاً ميسوراً، ولربما كان إنجازه -بالمعنى العلمي الدقيق- أمراً متعذراً من حيث المبدأ. ذلك لأن تاريخ الترجمة هو، بمعنى ما تاريخ الإنسانية ذاتها، أو هو على الأصح تاريخ مقترن باللحظة التي أدركت فيها الإنسانية وعيها بذاتها فـ"الوعي بالذات", هو وعي "بالآخر", وعي بالاختلاف والمغايرة، وعي بآخرية يستعصي على الذات أن تبلغها مباشرة، وهو ما يكشف للذات الواعية بذاتها عن حاجتها إلى "وساطة" بينها وبين "الآخر"، هذا "الآخر" الذي يظل مستعصيا على الفهم، على فهم الذات له، ما لم تتحقق تلك "الوساطة" المتمثلة في نقل الآخر أو ترجمته أو تأويله، إلى شيء يمكن لـ "الوعي بالذات" أن يتعرف على نفسه -ولو جزئيا- فيه. وهذا الوعي الآخر بدوره - الذي ينطوي على وعي مماثل بالذات- يقف عاجزا عن التعرف على "الآخر" أو التعرف على "الذات" في "الآخر" إلا عبر تلك "الوساطة" بين هذين الوعيين اللذين يمكن النظر إلى كل منهما على أنه "وعي بذاته" وعلى أنه "آخرية" من غير أن يستطيع هذا "الوعي المزدوج" الاهتداء إلى ذاته في آخريته إلا- عبر معجزة تقرب الوعيين من بعضهما، من غير أن توحد فيما بينهما ولكنها تجعلهما قادرين على الدخول في تجربة مشتركة، أو على الانخراط في ضرب من التفاعل الخلاق، دون أن يفقد أي منهما هويته الذاتية التي هي عين الوجود الذاتي، الذي مهما اقترب من الآخر" فإنه يظل مطابقاً لذاته داخل كل تحولاته وتقلباته.

وأما المعجزة التي من شأنها أن تحقق "الوساطة" بين كل صور "الوعي الذاتي" و"صورة الآخرية"- فليست إلا "الترجمة"، بالمعنى الواسع للكلمة، التي وإن كانت اللغة أرقى أشكالها وأخصبها، فإنه لا يمكن لها مع ذلك أن تعد الشكل الوحيد الممكن للترجمة. فهناك الكثير مما هو واقع في نطاقها، من غير أن يكون مقترنا اقترانا تاما باللغة المحكية, والمكتوبة, والمقروءة, ومع ذلك تظل تجربة "الترجمة" مرتبطة بصورة جوهرية بفضاء اللغة, وذلك لكونها الابتكار الإنساني الأكبر الذي أضحى بفضله للعالم والأشياء والمفاهيم والتصورات والعواطف تاريخٌ كليٌّ يدل على القيمة المشتركة، أو التي يفترض أن تكون مشتركة، داخل التجارب الإنسانية المتنوعة التي يرتبط كل منها بتاريخ "وعي ذاتي كلي" أي وعي أمة ما، ولكنه مع ذلك يكافح لأنه يكون معنى كلياً يربط بين تجارب الأمم المختلفة. إلى جانب هذا "التاريخ الكلي" يُوجَد وعي خاص بالأشياء مرتبط بالتجارب الجزئية والخاصة. لهذا "الوعي الذاتي الكلي" أو ذاك -أي وعي أمة ما- ما يجعل للأشياء والتصورات والمفاهيم والعواطف قيما رمزية مخصوصة ينفرد بها وعي أمة ما من الأمم.

أما "فعل الترجمة"، فيستمد شرعيته -بصورة ضمنية- من الافتراض بأن هناك عناصر

كلية، أو شبه كلية، مشتركة بين صوَر الوعي الذاتي الكلي التي تنتسب إلى الأمم المختلفة. غير أن الممارسة الفعلية للترجمة تكشف عن وجود عنصر الخصوصية والتمايز، وهو ما ينفرد به كل وعي "ذاتي كلي" وعي هذه الأمة أو تلك. وما الصعوبات التي يواجهها المترجم في التعبير عن المعاني والتجارب والتصورات والعواطف التي ينطوي عليها نص معين بلغة محددة في لغة أخرى إلا شاهدٌ على أن الترجمة إنما هي ضرب من التأرجح بين كونها "نقلاً" وكونها "تأويلاً".

لو صح أن هناك عناصر مشتركة في التجارب الإنسانية بين كل الأمم في كل الحقب - لجاز الحديث عن الترجمة بوصفها نقلاً. ولكن لمّا كانت الشواهد التي يمكن لنا أن نسوقها في هذا الاتجاه هي أضعف من أن تذكر، فقد أصبح من الضروري والمنطقي الحديث عن بُعد آخر في الترجمة هو بعدُ "التأويل". وهذا يعني أن أدق تعريف يمكن أن يقدم للترجمة يتمثل في قولنا: إنها ترجمةُ ما يُفْتَرَضُ أن يكون كليا إلى تجربة جزئية أو خاصة هي تجربة الأمة التي يقوم المترجم بنقل النص الأصلي إلى لغتها. ولما كان النقل المطابق من لِغة إلى أخرى ضرباً من المستحيل، فقد كانت الترجمة في حقيقتها ضربا من التأويل يجب ألَّا يشير فقط إلى معنى واحد هو إفقار للنص، ذلك لأن التأويل بالمعنى الدقيق يشير أولاً وبالذات إلى كل ما من شأنه أن يدفع بالنص نحو العمق والغنى والانفتاح. فالتأويل الحقيقي إنما هو قراءة تتلمس الاتجاهات الباطنية للنص في تفاعلها مع قارئ بصير، مما يسمح في النهاية للترجمة بأن تكون نوعاً من السير في الاتجاهات الأساسية للنص، غير أنها اتجاهات كانت مطوية وخفية قبل القراءة التي سمحت بترجمة النص أو بقراءته وتأويله.

وبهذا تكون "الترجمة" -بصرف النظر عن تصورنا التفصيلي لها- نشاطاً إنسانياً "أمثليا" يحيل جوهره إلى تجربة التواصل بين الأمم والشعوب مما يسمح بالقول عن الترجمة: إنها عنصر مقوم في التجربة الإنسانية لا- يتطرق الشك إلى قيمته حتى لو افترضنا أن المستقبل أو الآخر يتقن اللغة التي كتب بها النص؛ لأن المستقبل سيظل في تعامله مع النص الذي ينتمي إلى ثقافة مختلفة قارئاً أو مؤوِّلاً- أو مترجماً حتى ولو قرأ النص بلغته الأصلية.

وحتى داخل إطار الفضاء الواحد، فإن تجربة القراءة وما يرتبط بها من تأويل تظل جزءا لا يتجزأ من الفعل المنتج للثقافة. ذلك أن المقدرة على قراءة نص ما داخل الفضاء اللغوي والثقافي نفسه تتفاوت وتتباين بتفاوت الأفراد وتباينهم في المقدرات والمواهب والإعداد المنهجي والعمق المعرفي، وهو ما يؤدي إلى ظهور القراءات المتعددة والتأويلات المتباينة وتمايز الرؤى وتعدد المداخل.

أما عندما يتم الانتقال بالنص من فضاء ثقافي إلى فضاء ثقافي آخر، فإن عمليات "التأويل" تصبح أشد جذرية وتعقيداً، لأنها غدت تعبّر عن قراءة ما، هي قراءة المترجم لنصٍّ كُتبَ بلغة معينة عبر لغة أخرى لها خصوصياتها اللغوية وتاريخها الثقافي الخاص الذي يخلع عليها شخصية وعبقرية تَخُصَّانهَا، الأمر الذي يجعل نقل النص من لغة إلى أخرى فعلاً- لا يمكن تصوره بمعزل القراءة والتأويل بصفة عامة. ولعل هذا الارتباط الوثيق بين الترجمة من ناحية وقراءة النصوص وتأويلها من ناحية أخرى هو ما جعل

الكثيرين لا يعترفون بأن الترجمة "ممكنة والكثير منْ هؤلاء من يستنكرون ممارستها. وأشد ما يكون الاستنكار وعدم الاعتراف عندما يتعلق الأمر بترجمة بعض الأنماط النصية مثل لغة الكتب المقدسة ولغة الشعر"(1).

ومن غير شك فإن الترجمة "قديمة قدم المجتمعات البشرية حيث كانت ولا تزال وسيلة الاتصال والتفاهم بين كل جماعة تتكلم بلسان ما والجماعات الأخرى التي تتكلم بألسنة أخرى. ودواعي الاتصال والتفاهم كثيرة، منها ما يتعلق بشؤون التبادل السياسي والتجاري والفكري أيام السلم، ومنها ما يتصل بشؤون النزاع والقتال ثم ما يتبعها من تفاوض أيام الحرب"(2). ومن الممكن القول عن الترجمة أيضاً: إنها "نقل من لغة إلى لغة أخرى، وهي من هذا المنطلق تفترض معرفة باللغة التي ننقل منها وباللغة التي ننقل إليها وتفترض معرفة بالمحيط الثقافي لكل لغة"(3). كما يمكن النظر إلى الترجمة على أنها (نقل الكلام من لغة إلى أخرى... أو هي إيصال فكرة أو تبليغها أو تحويل التبليغ إلى لغة أخرى وإعطاؤه شكلاً مكتوباً أو مسموعاً، أو وضع صيغة مطابقة لصيغة في لغة النقل) (4).

ومع ذلك يظل من الممكن النظر إلى الترجمة من زوايا متعددة تبني لنا تكامل النظرة إليها لا تناقضها. فهي تدل عند بعضهم على "ظاهرة امتزاج بين اللغات مرتبطة بخاصية ازدواج اللغة لدى المترجم, وتكشف عن التداخلات الدارجة بين اللغات", وهي عند آخرين "عملية تأويل أو إعادة تلفظ بنقل رموز وقوالب لغة إلى لغة أخرى". أو هي "عملية اتصال وحوار يتم بها التفاعل بين المجتمعات المختلفة الألسن", أو هي أيضا "وصف لطبيعة التطابقات وشروط تحقيقها بين لغتين", وقد تعرف أيضا بأنها "نشاط كلامي ذهني يساعد على معرفة الضوابط التي تحكم فكر المترجم في أثناء انتقاله من شكل النص الأولى ومضمونه إلى المضمون الجديد وشكله الفني"(5). ومن ذلك كله يتضح أن الترجمة -والترجمة الثقافية بخاصة- تعبر عن "عملية تواصل وتفاعل حضاري وفكري بين عالمين مختلفين تماماً بكل ما تعنيه الكلمة من غربة واغتراب، ومن نتائجها عادة إزالة هذا الشعور والعمل على استيعاب الأفكار, وكافة الجوانب الأنثروبولوجية من عادات وتقاليد مغايرة مما يؤدي إلى التفاعل والتنمية بالإضافة أو الطرح(6).

فجوهر الترجمة بناء على ذلك قائم فيما تتيحه من تواصل بين ثقافتين وبين عالمين يؤثر أحدهما في الآخر. غير أن هذا التأثير ليس له أن يتحقق إلا من خلال عمل المترجم، الأمر الذي يدعونا إلى التفكير في ماهية هذه العملية وفي كيفية إنجازها وفي حدود هذا الإنجاز. ويبدو أنه لا توجد ترجمة بمعنى النقل الحرفي أو الدقيق من لغة إلى أخرى أو من ثقافة إلى أخرى، وإنما من طبيعة هذا النقل أن يكون نوعاً من القراءة والتأويل ينهض بعبئه المترجم في أثناء عملية التفاعل التي قد يطلق عليها بعضهم اسم "النقل". ومن شأن هذا كله أن يكشف لنا عن الدور الأساسي لثقافة المترجم التي تعبر عن نفسه آخر الأمر في مقدرته المتميزة على التأويل.

وبوسعنا أن نميز في الترجمة بين قسمين كبيرين:

الترجمة الأدبية والترجمة غير الأدبية. أما الترجمة الأدبية فـ "تتعامل مع نص يقوم

على قيم جمالية. والنص الأدبي ظاهرة جمالية قائمة بذاتها، وعمل إبداعي متكامل وتوليفة لا- يمكن فصل خيط من خيوط نسيجها, ومن هنا فإن ترجمة العمل الأدبي عملية تفاعل إبداعي في إطار له ضوابطه الخاصة"(7).

وأما الترجمة غير الأدبية أو الترجمة العلمية فلا تواجهها على وجه العموم صعوبات كتلك التي تواجه الترجمة الأدبية التي يعدّ الجمال أهم عناصرها المقومة. ولما كانت الموضوعات التي تتناولها الترجمة غير الأدبية أو العلمية كالتجارة والزراعة والسياحة والعلوم التطبيقية, وحتى النظرية منها قابلة للترجمة الدقيقة- فإن العلماء في هذه الميادين "يتناولون ببحوثهم موضوعات ليست مقصورة على بيئة دون أخرى... وهناك وسائل عملية تمكن من إتقان هذا اللون من الترجمة وتمكّن من تعليمه"(8). ولعل من أهم الفروق بين الترجمة الأدبية أو الجمالية والترجمة العلمية والتطبيقية أن بوسع المترجم اختيار أي نص أدبي بصرف النظر عن الزمان الذي كُتب فيه والثقافة التي ينتمي إليها، بينما لا يستطيع المترجم في ميدان العلم إذا كان يريد لما ترجمه أن يكون واقعا خارج تاريخ العلم -إلا- أن يختار نصوصاً أو أبحاثاً تتعلق بأحدث المنجزات العلمية هذه المنجزات التي هي بطبيعتها- وخاصة في عصرنا- أنها سرعان ما يتم تجاوزها من جانب الأبحاث الجديدة التي تظهر باستمرار. ولذلك فإن هناك من يرى "أن تترجم البحوث والدراسات العلمية، لا الكتب والمؤلفات فحسب؛ لأن هذه البحوث والدراسات تمثل الجديد في ميدان العلم, وتحمل أفكار العلماء وآراءهم وتجاربهم وخبراتهم... بصورة مستخلصات يعدّها متخصصون وتُنشر بالعربية في دوريات علمية عامة ومتخصصة."(9). ومعنى ذلك أن جوهر الترجمة قائم أساساً في صميم الترجمة الأدبية والجمالية وليس في الترجمة العلمية وليس في التعريب أيضاً ولو بصورة جزئية. على أن هذا لا يعني أن التعريب والترجمة العلمية منقطعة الصلة تماماً بماهية الترجمة. ذلك أن من شأن الاطلاع عليهما والوقوف على مشكلاتهما أن يزيد المترجم بصيرة في طبيعة المشكلات الخاصة بالترجمة.

ولو عدنا إلى ماهية الترجمة من حيث هي عملية فنية, وجمالية, وإبداعية، لقلنا: إنها تتكون من ستة عناصر أساسية متكاملة ومترابطة بحيث لا يمكن فصل الواحد منها عن الآخر لأنها بمجموعها هي التي تسمح بتحول النص من لغته الأصلية إلى اللغة التي يترجم إليها، مع بقائه محتفظاً بالشيء الكثير من قيمته الفنية والجمالية. وهذه العناصر على التوالي:

1- اللغة - المصدر.
2- النص - المصدر.
3- المترجم.
4- النص المترجم.
5- لغة الترجمة.
6- اللغة المستقبلة.

واللغة -المصدر، هي اللغة التي يقع اختيار المترجم على أحد نصوصها لترجمته إلى لغة أخرى مستنداً في اختياره لهذا النص إلى مسوغات هو وحده المسؤول عن تبريرها,

والدفاع عنها بقصد إقناع المتلقين بقيمة النص, وأهمية نقله من لغة المصدر إلى اللغة المستقبلة. وعلى ذلك فإن اللغة - المصدر هي: "اللغة التي ينتمي إليها النص المراد ترجمته، وهي تجريد ناتج عن دراسة نصوص تلك اللغة، ولا علاقة لها بالترجمة أصلاً فاللغة المصدر سابقة للترجمة، ودراستها سابقة لدراسة لغة الترجمة. فاللغة - المصدر موجودة بشكل مستقل تماماً عن ظاهرة الترجمة، وتُدرس أيضا باستقلال تام عنها"(10).

أما النص -المصدر، فهو الجزء الذي وقع عليه اختيار المترجم من اللغة -المصدر من أجل نقله إلى لغة أخرى. وبوسعنا القول على وجه الإجمال: إنه إذا كانت "اللغة-المصدر" هي الأرضية التي تنطلق منها الترجمة, والمرجع الأساسي في الحكم على ما ينتجه المترجم- فإن "النص-المصدر" هو النقطة المركزية المحددة للبدء في عملية الترجمة كما أن الرجوع إلى هذه النقطة -رجوعاً حرفياً- هو رجوع إلى النص في تركيبه ومعناه، في حين يكون الرجوع إلى اللغة المصدر رجوعاً إلى قواعدها وقوانينها العامة، هذه القواعد التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل فهم "النص- المصدر". ويشكل فهم "النص- المصدر" أول خطوة يقوم بها المترجم في عملية "الترجمة"(11).

وفيما يتعلق بالنص المترجم، فهو المادة اللغوية التي بوسعنا دراستها للوقوف على قيمة عمل المترجم، وهو ما لا يتأت لنا القيام به إلا بمضاهاة "النص- المصدر" المستمد من "اللغة- المصدر" بـ "النص المترجم" الذي تم نقله إلى لغة مستقبلة. وعلى ذلك يمكننا القول: إذا كانت نقطة البدء في عملية الترجمة هي "النص- المصدر"، فإن النص المترجم هو المادة اللغوية الفعلية. والمحدودة الناتجة عن عملية الترجمة، فالنص المترجم هو مادة لغوية أنتجت فعلا كجزء من عملية الترجمة "نص- مصدر"... لهذا يفترض "النص المترجم" أسبقية "لغة المصدر" و "نص مصدر"، و"مترجم"(12).

وأما أشد العناصر أهمية هي تلك التي نلتقي بها عند تحول "النص المصدر" إلى "نص مترجم"، فيتمثل في كون النص المترجم قد أصبح موجهاً إلى متلقين آخرين لم يكن "النص- المصدر" موجهاً إليهم أصلا. وذلك راجع إلى الانتقال اللغوي من لغة إلى أخرى، وهو ما نجم عن ترجمة النص المصدر من اللغة المصدر إلى لغة مستقبلة هي لغة الترجمة. وعلى ذلك فإنه "بينما يكون النص المصدر موجهاً إلى مجموعة معينة ذات لغة محددة- ينقل النص المترجم هذا التوجه ويخاطب متلقين أو قراء أو مستمعين جددا غير المقصودين بالنص المصدر وبلغة غير لغته"(13).

وأما اللغة المستقبلة فهي المادة اللغوية التي أنتجتها الترجمة نتيجة لتحول نص مصدر من "لغة مصدر" إلى "نص مترجم" في لغة أخرى هي اللغة المستقبلة. ولا بد لهذا النص المترجم حتى يتذوقه الناطقون باللغة المستقبلة من أن يصاغ "النص المترجم" باستخدام المنظومة اللغوية "للغة المستقبلة" بنحوها, ومفرداتها, وتراكيبها, المألوفة...إلخ، ويحاول أن يقترب من المعايير المألوفة أو الشائعة فيها. وكما هو الآن بالنسبة للغة المصدر، فاللغة المستقبلة هي لغة أصيلة لها وجودها, ونصوصها, وتاريخها, بغض النظر عن طبيعة الترجمة(14).

وأخيراً فإن المترجم هو أهم العناصر في عملية الترجمة بأكملها. فهو الشخص الذي

تلتقي في جهوده جميع العوامل الأساسية لعملية الترجمة. وفي الحقيقة "فإن دراسة الترجمة، ولغة الترجمة هي دراسة ما لدى المترجم من قدرة لغوية، وما ينتجه فعلاً من نصوص مترجمة. فعند المترجِم تتوفر المعرفة اللازمة للغتين أو أكثر، وعنده المهارة في النقل بين اللغات، وهو المفسر للنص المترجم، وتفسيره يحدد طبيعة المعنى الذي يترجمه ويقرؤه القراء بلغة غير لغة النص المصدر"(15).

ومن كل ما تقدم يتبين أن وظيفة المترجم لا تقف عند حد نقل مادة لغوية إلى مادة لغوية أخرى، بل إن جوهر وظيفته كامن في أن المترجم "هو المؤول بالمعنى الهيرميونيطيقي: ويجب تحديد هذه الوظيفة للمترجم بالمعنى الضيق للمدرسة التفسيرية الهيرميونيطيقية... فالوظيفة التفسيرية موجودة نظرياً على الأقل في جميع أنواع الترجمة"(16). فلعمل المترجِم أهمية قصوى تتجاوز كونه ينقل نصاً من لغة إلى أخرى؛ لأنه في الحقيقة من خلال هذا النقل ينهض بوظيفة التأويل لما يترجم من نصوص. والتأويل ثمرة للقراءة التي تعطي النص معناه في إطار ترجمته إلى لغة مستقبلة.

وعلى ذلك يمكننا أن نقول عن المترجم: إنه مؤلف ثانٍ وليس مجرد ناقل. وما يبرر ذلك هو الاختيار الأولى للنص الذي هو من عمل المترجم على وجه الحصر، ولكونه قارئاً لما اختار من النصوص، وبذلك لا يخرج العمل المترجَم إلى مستقبله إلا بعد أن يكون مؤوَّلا: أي أن ذات المترجم تنجز عملية مثلثة فهي تستسلم لانفتاح النص، وكل نص حقيقي يمتاز بالانفتاح اللامحمود على قارئه، ومن جهة أخرى فإن مقاصد الذات التي اختارت النص من حيث المبدأ كي تترجمه تحاول أن تهتدي إلى ذاتها في صميم النص المصدر. ثالثاً وأخيرا: فإن التعبير عن المادة اللغوية ذاتها بلغة أخرى يفرض على المادة الأصلية نوعاً من التحول الناجم عن ماهية اللغة الثانية التي تنفرد بنظام لغوي فريد لا بد له من التأثير في طبيعة المادة نفسها التي يتم التعبير عنها بهذه اللغة الجديدة. وينبغي ألا يفهم أحد من ذلك أن من حق المترجم التصرف في معنى النص الأصلي حسبما يريد، أو أن يُزَوِّرَ المعنى الذي ينطوي عليه النص، بل على العكس من ذلك تماماً إذ يتعين على المترجم "المحافظة على هذا المعنى، ولكن بما أنه يجب أن يفهم في عالم لغة أخرى- وجب أن يؤدي فيها بطريقة مختلفة. فلهذا السبب فإن كل ترجمة تفسير، بل إن بإمكاننا القول: إنها دائماً اكتمال التفسير الذي أضفاه المترجِم على الكلمة التي عرضت عليه"(17). على أن اكتمال التفسير هذا لا يعني أبداً نوعاً من التكرار الذي يقلد المترجم فيه السياق النفساني للمؤلف صاحب النص الأصلي، بل يشير اكتمال التفسير ههنا إلى أن هناك ضروباً من التفاعل الخلّاق بين المترجم والنصّ توفرها للمترجم قراءته المعمقة للنص. ولعل هذا ما يفسر لنا إخفاق الترجَمات التي تتوخى أن تنتج لنا نسخة حرفية عن النص، فيغيب منها نتيجة ذلك كل آثار البصيرة التي يجب على المترجم أن يستنير بها في قراءته للنصوص وترجمتها. ولذا يرى بعضهم أن الترجمة "ليست مجرد انبعاث للسياق النفساني الأصلي لصياغته، لكنها إعادة خلق للنص توجهها عملية فهم ما قيل فيه حتى لو نجح المترجم في جعل حياة المؤلف وعواطفه وكأنها نابعة منه"(18).

ثمة أمور أكثر أهمية في إنتاج النص المترجم يتعين مواجهتها, وعنصر التفسير أو

التأويل -وإن كان ثمة فوارق ضئيلة فيما بينهما- يسمح لنا بالقول عن الترجمة بأنها إضاءة- إضافة، وعلى كل مترجم أن يأخذ على عاتقه هذه الإضاءة. كذلك من البدهيّ أنه لا- يسعه أن يترك شيئاً معلقاً مما يبدو له غامضاً. إن عليه أن يكشف اللون لأن هناك حالات قصوى يتضمن فيها النص الأصلي شيئاً ما غامضاً. حتى بالنسبة للقارئ الأصلي. ولكن حالات التأويل القصوى هذه هي بالضبط التي يبدو فيها بوضوح الإكراه الذي يتعرض له المترجم. وعليه ههنا أن يذعن، أن يقول بوضوح، كيف نفهم. ولكن طالما تعذر عليه تقديم تعبير حقيقي عن جميع أبعاد نصه، فهذا يعني بالنسبة إليه تنازلاً مستمراً(19). وبمقتضى ذلك تكون الترجمة في حقيقتها إضاءة وإضافة, واختراقاً للغموض الذي يكون مخالطاً للنص الأصلي، وليس بوسع المترجم أن يترك أمراً معلقاً إذ لابد له من قول شيء يجعلنا نفهم. وما يقوله في الحقيقة هو تأويل المترجم أو قراءته. ومن الأمثلة الكلاسيكية على عودة القراء الأصليين إلى الترجمة -من أجل مقاربة النص واختراق نقاطه الغامضة- كتاب (علم المنطق) للفيلسوف الألماني (هيغل). إذ لا يسع القارئ الألماني الجاد إذا ما شرَع في قراءة هذا النص الهيغلي المشكل إلا أن يضع الترجمة الإنجليزية لهذا النص على يمينه، بينما تكون الترجمة الفرنسية على شماله، حتى يقف على القراءات المختلفة لهذا النص في غير لغة وترجمة. فإذا ما علمنا أن لهذا الكتاب ترجمتين إنجليزيتين وترجمة فرنسية واحدة على حدّ علمنا تبينت لنا أهمية القراءة الجادة التي تنتج ترجمة لا يمكن إلا أن تكون مستندة إلى نوع من التفسير أو التأويل ولذلك جاز للقائل عن المترجم أن يقول: "وحده المترجم الذي يحمل إلى اللغة الشيء الذي يبرزه النص، أي يجد لغة لا تكون لغته وحسب، بل لغة ملائمة للنص الأصلي، وحده يستطيع فعلاً- إعادة الخلق، فمهمة إعادة الخلق، أي مهمة المترجم، لا- تختلف نوعياً عن المهمة التأويلية العامة التي يطرحها أي نص آخر، فليس ثمة فرق إلا في الدرجة"(20).

وعلى ذلك فالترجمة لا تنفصل عن عملية التأويل؛ لأنها ثمرة للقراءة أصلاً. وليس من معنى لكوننا نقرأ إلا أننا "ننتج خطاباً جديداً، ونربطه بالنص المقروء، هذا الارتباط بين الخطاب القارئ وبين الخطاب المقروء -داخل التكوين الذاتي للنص ذاته- قدرة أصيلة على استعادة الخطاب لذاته بشكل متجدد، وهي التي تعطي خاصيته المفتوحة على الدوام: والتأويل هو النهاية الفعلية لهذا الارتباط بين خطاب وآخر وهذه الاستعادة المتجددة" (21). ومن ذلك يتبين أن الترجمة تنتج خطاباً ناجماً عن قراءة المترجم للنص الأصلي. وتبلغ هذه القراءة منتهاها عندما تتحول إلى تأويل، أي إلى نص أو قول أو خطاب يمتلك مقوماته الخاصة تماماً. وهذا يعني أن بوسع أي قارئ أن ينتج نصاً جديداً ابتداء منه. ولم يكن ذلك بالأمر الممكن إلا لأن القراءة الجديدة قد حققت من الفاعلية القدر الذي يكفي لكي تتحول إلى نص أو خطاب.

وليس ثمة شك في أن تأويل النص الذي أنتج خطاباً جديداً أو نصاً جديداً لا يمكن تصوره منفصلاً عن تأويل الذات لذاتها، ذلك أن النص يوفر فرصة للذات لتتعمق تعرفها على نفسها، مثلما أن الذات أيضاً بوسعها أن تفيض من لدن ذاتها على النص إشعاعات لم يكن من السهل اكتشافها فيه لولا فاعلية الذات وفعلها داخل هذا النص المفتوح. فاكتمال

تعقل النص لا- يمكن له أن يقع خارج تعقل الذات لذاتها داخل النص ذاته بشكل أحسن ومغاير وتبدأ في تحقيق ذلك الفهم الذاتي"(22). فليس النص من منظور الذات إلا مناسبة تسمح لها بإنتاج الخطاب، أو هو بعبارة أخرى مناسبة كي تحقق الذات عبره مزيداً من الوعي الذاتي بذاتها في آخرية هي في صميمها وعي ذاتي آخر، هو صاحب الخطاب أو النص، وهذه هي حقيقة الترجمة على الأصالة وبصورة فعلية. ولئن دل كل ما تقدم على شيء، فإنما يدل على أن الترجمة هي واحدة من بين أهم السبل التي يفزع إليها الوعي الذاتي الإنساني -الفردي والجماعي- بقصد تحقيق التواصل بينه وبين الوعي الذاتي الآخر. وهذا ما يسمح لنا بالقول عن الترجمة، التي هي في حقيقتها "تأويل" بأنها تضطلع بعملية تحويل "ذلك الغريب المتباعد إلى شيء خاص بالذات, ومتملك لديها"(23).

وعلى ذلك، فلو شاء المرء أن يتحدث عن ماهية الترجمة مجملاً -لأمكن له أن يقرر بأنها "نمط أمثلي" من أنماط التواصل بين الأفراد والجماعات, والثقافات, والحضارات، وأن من شأنها أن توطد الحوار بين الأفراد, وبين المجتمعات الإنسانية. ومن شأن التفاعل الذي تولده أن ينتهي إلى إنتاج بؤرة مشتركة قابلة للتوسع والنمو بحيث يمكن لها أن تشارك في خلق الظروف التي من شأنها أن تعمق الاتصال, وأن تخلق دائرة من القيم المشتركة، وهو ما من شأنه إنتاج مزيد من التقارب بين الأفكار والقيم, وأساليب الحياة التي تيسر سُبل التعايش بين الثقافات المختلفة، أو التي قد تتيح الحد من التوتر والعنف بين الثقافات, والحضارات التي ينتجها بنو البشر. ذلكم هو رأي الذين ينظرون إلى قضية الترجمة, وغيرها من القضايا المرتبطة بمشكلات التواصل بين المجتمعات البشرية, والثقافات الإنسانية نظرة انفتاح بعيدة عن التعصب القومي, والديني, والعرقي، بل أي شكل آخر من أشكال التعصب.

****

الحواشي

*) كاتب وأكاديمي من سورية.

1- عمر شيخ الشباب: التأويل ولغة الترجمة، دار الهجرة، بيروت 1989م، ص9.

2- شحادة الخوري: الترجمة قديما وحديثا، دار المعارف سوسه، تونس ب ت ص33.

3- د. مصطفى ماهر: الترجمة والتنمية الثقافية، ندوة الترجمة والتنمية الثقافية بإشراف لمعي المطيعي. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م، ص1-3.

4- علي بن إبراهيم النملة: مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض 1992م، ص82-83.

5- محمد حلمي هليل: المترجم العربي والمصطلح الفني، ندوة الترجمة والتنمية الثقافية- بإشراف لمعي المطيعي، مرجع مذكور سابقاً، ص101-102.

6- المرجع نفسه: ص103.

7- د. مصطفى ماهر: مرجع مذكور سابقا، ص14-15.

8- المرجع نفسه: ص15-17.

9- شحادة الخوري: مرجع مذكور سابقاً، ص94.
10- عمر شيخ الشباب: مرجع مذكور سابقا، ص19.
11- المرجع نفسه: ص22.
12- المرجع نفسه: ص26.
13- المرجع نفسه: ص25-26.
14- المرجع نفسه: ص31.
15- المرجع نفسه: ص22-23.
16- المرجع نفسه: ص23-24.
17- هانس جورج غدامير: نص من كتاب الحقيقة والمنهج ترجمة آمال أبي سليمان، مجلة العرب والفكر العالمي العدد الثالث، صيف 1988م، بيروت، ص20-12.
18- المصدر نفسه: ص22.
19- المرجع نفسه: ص22.
20- المرجع نفسه: ص22-23.
21- بول ريكور: النص والتأويل - ترجمة منصف عبد الحق مجلة العرب والفكر العالمي العدد الثالث، بيروت 1988م، ص47.
22- المصدر نفسه: ص47.
23- المصدر نفسه: ص48.